هوامش

يذكر الباحثون والمؤرخون أن الحمّام الإمبراطوري الكبير يكاد يكون أحد أعرق المعالم التاريخية في الإسكندرية، إلا أن هذه العراقة لا تمنحه الحصانة من الإهمال الذي قد يؤدي إلى اندثاره

الحمّام الإمبراطوري الكبير (العربي الجديد)

الحمّام الإمبراطوري الكبير

الإهمال يهدد باندثار معلم تاريخي في الإسكندرية

الإسكندرية ـ **أحمد عبده**

يواجه الحمّام الإمبراطوري الكبير، أحد أعرق المعالم التاريخية في الإسكندرية شمالي مصر، خطر الاندثار نتيجة تجاهل المسؤولين وإهمالهم الحفاظ عليه من العوامل الطبيعية والمناخية، إلى جانب التعديات عليه، رغم أهميته الكبيرة وطرازه الفريد. ويُعَدّ الحمّام الإمبراطوري الكبير والمعروف باسم الحمّام المصري، الوحيد من نوعه في الإسكندرية، وأحد أقدم الحمّامات العامة في مصر، وقد ظهر منذ عهد البطالمة الأوائل، فيما تؤكد الشواهد المعمارية أن المبنى تأسَّس وبُنيَ في نهاية القرن الثالث الميلادي، وأُعِيد بناؤه بعد الزلزال الكبير في عام 535 ميلادياً.

ويقول الباحث في الآثار حسن صلاح، وهو عضو مؤسسة أحفاد الإسكندر الأكبر، لـ «العربي الجديد»، إن الحمّام الإمبراطوري الكبير الذي يوجد في منطقة كوم الدكة بوسط الإسكندرية يُعَدّ شاهداً على تاريخ مصر العريق، ويمثل إرثاً ثقافياً وحضارياً لا يُقدر بثمن. ويشير إلى أن مدينة الإسكندرية ضمت عشرات الحمّامات العامة منذ عام 331 قبل الميلاد. بنى أولها الإسكندر الأكبر، وازدهرت خلال العصور الهلينستية والرومانية، ولم يبقَ منها سوى حمّام المصري وسط المدينة الذي يحتفظ بشكله الأثري، ومُسجَّل في وزارة الآثار أنّ من بين أشهر زواره زوجة الرئيس الأميركي جيمي كارتر، وزوجتي الرئيسين المصريين الراحلين جيهان السادات وسوزان مبارك، وعدداً من رؤساء الدول وزوجاتهم. ويؤكد الخبير الأثري أن المحافظة مسؤولة عن صيانة الحمّام الإمبراطوري، وهذه مسؤولية وطنية تقع على عاتق الجميع، كأحد أهم المواقع الأثرية في مصر. ويشير إلى أن الحمّام بُني من الطوب الأحمر المصنوع من طمي النيل. لكن مع مرور القرون وعدم وجود حماية كافية، وصل إلى حالته الحالية بفعل الإهمال والتأثير السلبي للعوامل المناخية، مثل التعرية والأمطار والرياح. وتطالب السلطات المختصة باتخاذ إجراءات فورية لحماية الحمّام وصيانة الهياكل المعمارية وتركيب أنظمة الصرف المناسبة، لمنع تأثر الموقع بالعوامل المناخية، بالإضافة إلى تطبيق استراتيجيات للحفاظ على البيئة المحيطة، وتعزيز الحراسة والمراقبة المستمرة للموقع بهدف الحفاظ على هذا المعلم التاريخي الفريد، وإبرازه بكونه أحد أهم معالم الإسكندرية، ولمنع أي أضرار أخرى. من جهته، يرى رئيس لجنة حفظ التراث سابقاً وأستاذ الهندسة المعمارية بجامعة الإسكندرية الدكتور محمد عوض، أن إهمال الحمام المصري لم يكن شيئاً جديداً، بسبب ما وصفه بسلبية هيئة الآثار في الحفاظ على الحمّامات الأثرية، التي تعاني إهمالاً جسيماً منذ زمن بعد تركها في حيازات وملكيات خاصة لعقود طويلة، حتى تمكّن المعتدون من تغيير معالمها والبناء عليها. ويوضح عوض في حديثة لـ «العربي الجديد» أن حمّام المصري الذي يعاني هو الآخر من الإهمال، هو الحمّام الوحيد المسجل ضمن القائمة التابعة للهيئة بقرار وزاري رقم 630 لسنة 1999، فيما تعرضت الحمّامات الأخرى للإهمال، وتحول عدد منها إلى أطلال وطُمست معالمها بعدما بقيت في حيازات خاصة، ما تسبب في اندثارها. يضيف عوض أن الإدارات المتعاقبة لهيئة الآثار لم تهتم بتسجيل حمامات الإسكندرية، واستمر هذا الوضع حتى عام 1999، ووُضعَت قائمة للحفاظ على تراث المدينة للقرن التاسع عشر والقرن العشرين. وفي ذلك الوقت، سُجِّل حمّام المصري فقط، وأُهمِلَت الحمّامات الأخرى أو حُفِظَت باعتبارها آثاراً إسلامية. وعند إنشاء المجلس البلدي عام 1890، اقتصر دوره على الإشراف الصحي وتنظيم إدارة الحمامات فقط.

ويحذر مدرس التاريخ والإرشاد السياحي ونقيب المرشدين السياحيين السابق، إسلام عاصم، من اندثار الحمّام الإمبراطوري الكبير وضياعه مثل ما حدث مع حمّام الدهب، الذي خرج من قائمة اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية في عام 2012 بسبب الإهمال وامتلاء معظم أجزائه بالمخلفات، الأمر الذي مكّن مالك المبنى من الحصول على حكم قضائي باستخراج رخصة هدم المبنى التاريخي. ويشير إلى أن الإسكندرية عرفت الحمّامات العامة منذ نشأتها عام 331 ق.م على يد الإسكندر الأكبر وخلال العصور الهلينستية والرومانية التي أنشئت قديماً لعدد من الأهداف، أهمها الاستحمام والنظافة، وبعضها كان يُستخدَم لعلاج الأمراض، إلى جانب أهداف أخرى، وهي المشاركة المجتمعية، بالإضافة إلى دوره غير المباشر في نظافة الحيّ. وكانت القمامة تُجمَع لاستغلالها وقوداً لتسخين المياه. كذلك لعبت الحمّامات دوراً مهماً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصور الإسلامية، إذ كانت شاهداً على أحداث مهمة.

ويلفت إلى أن المصادر التاريخية المتعلقة بالبناء المعماري للحمّامات في الإسكندرية خلال العصر الروماني بالغة الندرة. ورغم ذلك، فقد اكتُشِفت بقايا حمّامات متنوعة الأشكال، ما يشير إلى أن حمّامات الإسكندرية كانت تتميز بخصائص معمارية وثقافية إلى جانب وظيفتها الأساسية بوصفها أماكن للاغتسال. ويشير إلى أنه على الرغم من ذلك، فقد اكتُشِفَت بعض الحمّامات التي كانت مشتركة بين الرجال والنساء، ومنها الحمّام الإمبراطوري الكبير الذي يتميز بسماته المعمارية الفريدة، ويُعتبَر من أكبر الحمّامات الرومانية المعروفة في مصر، وكان يُستخدم أحياناً على نحو مؤقت من قبل أحد الجنسين فقط، ما يعكس جوانب من الحياة اليومية في ذلك الوقت. وتتحدث الباحثة في مجال الآثار، آية رمضان مصطفى، عن العناصر المعمارية الرئيسية للحمّام الإمبراطوري، وتقول لـ«العربي الجديد»: «هناك مدخل وفناء، ويحتوي على أعمدة من الغرانيت الأحمر وتيجان رخامية بأساليب كورنثية وآيونية، كذلك عُثر على قاعدة لتمثال ربما كان للإمبراطور أو لصاحب الحمّام نفسه». تضيف: «هناك حجرة لخلع الملابس تقع على بُعد 5 أمتار إلى اليسار من المدخل والفناء، مبنية من الحجر الجيري، وتحتوي على مصطبة دائرية تلتف حول عمود، ربما لجلوس المستحمين في أثناء خلع ملابسهم. كذلك توجد آثار لجدار مبنيّ من الحجر الجيري ربما لتعليق الملابس، وبعد حجرة خلع الملابس يوجد حوض لغسل الأقدام، والذي يؤدي مباشرة إلى الحمام». تتابع: «دمر الزلزال القسم الشمالي من الحمّام، بما في ذلك حجرة الماء الساخن وحجرة الماء البارد، ولكن لا تزال بقية حجرات الحمّام وملحقاته قابلة للتعرف إليها، وتشمل حجرة المياه الباردة، وحجرة الهواء الساخن، وحجرة المياه الساخنة، وحجرة السونا، بالإضافة إلى مرحاض». وتشير إلى وجود مخازن للحمّام، وإلى الغرب منها حمّام خاص بصاحب الحمّام وحمّام أطفال وحجرة انتظار، ويحيط بالحمّام من الخارج نفق مبنيّ تحت الأرض له سقف قبوي من الحجر الجيري، مفتوح على الأفران الجنوبية والغربية بأقواس لتزويد هذه الأفران بالوقود.

بدوره، يقول المدير العام للآثار الإسلامية بالإسكندرية محمد متولي، لـ «العربي الجديد»، إن الحمّامات العامة الأثرية بالمدينة لم يتبق منها سوى حمّام واحد فقط، وهو حمّام المصري، ومسجَّل بوزارة الآثار، ويحتفظ بشكله حتى الآن منذ سنوات طويلة ويحتاج إلى ترميم وتطوير». ويؤكد أنه «تمت مخاطبة الوزارة لاستغلال الحمّام كأثر، وبدء خطة تطويره، فوضعته هيئة الآثار ضمن برنامج التطوير لترميمه والاستفادة منه لجعله مزاراً سياحياً».

باختصار

تطالب السلطات المختصة باتخاذ إجراءات فورية لحماية الحمّام وصيانة الهياكل المعمارية وتركيب أنظمة الصرف المناسبة

■■■

يحذر البعض من اندثار الحمّام الإمبراطوري الكبير وضياعه مثل ما حدث مع حمام الدهب، الذي خرج من قائمة اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية في عام 2012 بسبب الإهمال

■■■

اكتُشِفت بقايا حمّامات متنوعة الأشكال، ما يشير إلى أن حمّامات الإسكندرية كانت تتميز بخصائص معمارية وثقافية إلى جانب وظيفتها الأساسية باعتبارها أماكن للاغتسال

وأخيراً

على رِسلِك أيّها الحنين

معن البياري

حنانيك، يا حنين. تمهّل في قدومِك. حاول أن تتأخّر، أو اترك قدومك إليّ يصيرُ قليلا. ما بك تفترس وقتي؟ تجتاحني ساعاتٍ. تأتي إليّ كل مساء في كل يوم. وإذا يحدُث وغِبتَ، تعود مُباغتا، وكأنك تأسَف، فيما لا أحتاجك إلا عندما أحتاجك فقط، ولا أفعلُ هذا كلّ مساء، كما يُخيّل إليك. على رِسْلِك، كُن خفيفاً، تعالَ ببطء، اجعلني أفتقدُك، لئلا تصيرَ ثقيلاً على روحي، وأنت الذي صِرتَ هكذا، ولم أحبّ لك هذا. لو تتأنّى ما أمكنك أن تفعل. قرأتُ أنك عاطفة أصيلة في فطرة الإنسان، وأنتَ هكذا حقّاً، وعاطفة أصيلة في حشاياي. ولكنّ هذا لا يعني أن تستبدّ بي، وأن تفترس وقتي، كما اصبحتَ تفعل منذ شهورٍ لا أستطيع عدّها؟ لا أودّ سؤالَك ما إذا كنتَ تزور آخَرين بالكثرة هذه كما تصنَع معي. أعرفُ أنك الشوقُ إلى ماضٍ، إلى صور في الذاكرة، إلى زمن أبعد وديع، لم يكن ضَجِرا، كان الناس فيه أقربَ مني وإليّ. كانت الأمزجة أصفى، القلق أقلّ، المحبات غزيرةً، الوقتُ وفيرُ، الدماغ أقل كثافة، البركة في الموجود وهداءة البال والقناعة بالحال والتفاؤل بالقادم والبساطة سيّدةٌ والغبطة بأفراح صُغرى وكُبرى.

أشتاق إلى هذه كلها، وأخرى مثيلات لها، كما كل الناس في طبائعها، غير أني لا أريد أن أفرط، ولا أن يبدو الناس البعيدون، المقيمون في زمن مضى منذ زمن، يحتلون شاشة دماغي، ولا أن أجول كثيرا في صور من الطفولة واليفاعة الأولى والصبا وبعض الشباب، ولا أن أسرف في استدعاء أيام وأيام، كنا فيها كذا، وكانت فيها الدار كذا، وكانت الدنيا غير الدنيا التي صرنا نعرف، كانت المدرسة على غير مدارس الأبناء التي صرت أرى، كانت الجامعة أوْزَن مما يصل الآن إلى مسامعي، كان ثمة ألفة في الحارة، مع جيران في يمين الدار وجيران في يسارها. كانت القروش تشتري ما تشتري من البقالة التي كبرت أمام عيوننا. كان الأبيض والأسود على شاشة التلفزيون، بقناتيه، بعد السادسة والنصف إلى ما قبل الواحدة ليلا، أبهج مما صارت الألوان تأتي به على قنوات بلا عدد، آناء كل الليل وآناء كل النهار. كانت نشرة الثامنة ليلا كافية لتعرف الذي يستجد في كل العالم، وليحدثك الأكبر منك عن الذي سيستجد بعد أيام وبعد أسابيع. كانت حيازة شريط كاسيت لعبد الحليم أو ذياب مشهور أو أم كلثوم ميزةً لا يحرزها أي أحد من أصحابنا ومعارفنا.

ولكن، كلُّ هذه الركاكات بين ظهرانيْك، وتُحاصرك، مع كل هذه الرداءات التي يضجّ بها حاضرُك، يجعلانه عسيراً عثورَك على بهجةٍ في هذا الموضع أو ذلك. كتب محمود درويش إن الحنين هو وجعُ البحث عن فرح سابق، وإنه وجعٌ من نوعٍ صحّي، لأنه يذكّرنا بأننا أناسٌ مرضى بالأمل وعاطفيون. ... ربما هذا تشخيصٌ صحيحٌ، فأنت تأتي بالماضي إليك ليُسعفك في تبرّمك من راهنٍ، يتكدّر فيه الحال والمزاج معاً، وفي ضيقِك من خرابٍ يفيض حواليْك، في غير أمرٍ وشأن. لكن المشكلة الأساس في الذي قاله درويش في نصّ غير

> كتب محمود درويش إن الحنين هو وجعُ البحث عن فرحٍ سابق، وإنه وجعٌ من نوعٍ صحّي، لأنه يذكّرنا بأننا مرضى بالأمل وعاطفيون

قليل السطور عن الحنين أنّ من صاحبة شاعر، ومهمّة الشعر ملاحقة المجاز. والحقيقي والمجاز حاضران في قولة أخرى للشاعر نفسه «الحنين هو زائر المساء حين تبحث عن آثارك في ما حولك، ولا تجدها...». أما في منطق العلماء، أو بعضهم، فثمة منهم من يذهب إلى أن «الحنين إلى الماضي» يسهم في زيادة القدرة على الابتكار والإبداع. وقال واحدٌ منهم إننا نستعيد الذكريات ذات المغزى فقط، ما يزوّدنا بالثقة للمضيّ إلى الأمام. ولعله كان طيّبا من دارسين انشغلوا بهذا كله، عندما جاءوا على فرقٍ بين الحنين الذي يحقّق فوائد نفسيّة قويّة، في قدرته على ربطنا بأنفسنا وأحبّائنا، والحنين الذي يجترّ الماضي من دون تفكيرٍ أو تأمل.

لستُ معنيّاً بكلام الشعراء، ولا حتى بحكَم الحكماء، في شأن الحنين بأنواعه ومنازله كلّهما، ولا بالذين سمّوا صوت العود عند النقر عليه حنيناً، ولا بالذين استفاضوا في مبحث حنين المُغتربين والمنفيين والمهاجرين إلى أوطانهم ودورهم. لستُ معنيّاً إلا بحنينٍ صار مُقلقاً، أخشى أن أصير مريضاً به، ثم مريضاً بالأمل بشفاءٍ منه. لا أعرفُ إن كنتُ أمضي إلى هناك، ولا أملكُ غير مناداتي الحنين: على رسلِك، كن خفيفَ الظلّ، ولا تُثقل الوقتَ بك. رجاءً.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **دينارات**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**